عبد الله بن مسعود

للأستاذ عبد الستار أحمد فراج

« وعاء ملئ علماً »
عمر بن الخطاب

الرحمن علم القرآن :

تلك قريش في جبروتها متربصة بمن يجيب داعي الله ويشيد لمحمد بالرسالة . فما يلم به من آمن إلا في خفاء ، ولا يتلو أحد ما أنزل الله إلا همساً أو من وراء جدر . وإن قريشاً لتبالغ في الإيذاء وتمعن في العقاب ، يخشى أساتها من له قوم عديدون ، ويتوق أذاها من حرم الكثرة والأتباع ، فكيف بمن لا أهل له ولا عشيرة . وأولئك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تسللوا إلى حيث يجتمعون وبينهم فتى يوشك أن يبلغ الحلم ، ذلكم هو عبد الله بن مسعود . قال أصحاب الرسول : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهم ؟ قال ابن مسعود : أنا ذلكم الذي يجهر لهم فقالوا وهم يرون جسمه الذي تقتحمه العين لفتى ما له في مكة من ركن شديد : إنا نخشاهم عليك إنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إذا أرادوه فقال : دعوني فإن الله سيمنعني .

وما راع قريشاً في أنديتها نحى ذلك اليوم إلا صوت يتردد في جوانب البيت ينبعث من عند مقام إبراهيم : « بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ... » واستقبل السورة يرتلها فتأملوا صاحب الصوت فإذا هو عبد الله ابن مسعود ، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : ما يقول ابن أم عبد ؟ فأجاب منهم مجيب : إنه يتلو ما جاء به محمد ، فاندفعوا إليه يضربون وجهه ، ولكنه ما يكف بل جعل يقرأ وهم يضربون حتى بلغ ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثرت بوجهه ضربات القوم ولطماتهم ولعل أشدها كانت لطمة عدو الله أبي جهل . قال له أصحاب الرسول وقد رأوا حاله : هذا الذي خشينا عليك فقال : ما كان أعداء الله قط أهون عليّ منهم الآن ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً قالوا : حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون

أنك غلام معلم :

كان أبوه مسعود وأمه أم عبد قد تركا قومهما هذيل الذين يسكنون جبل السراة قريباً من الطائف وأقاما بمكة حيث حالف مسعود عبد الله بن الحارث بن زهرة خال زوجه أم عبد والدة عبد الله بن مسعود ، ولما صار غلاماً يافعاً اشتغل برعي الغنم لعقبة ابن أبي معيط من سادات قريش ، وبينما هو قائم كعادته أقبل رسول الله ومعه أبو بكر فقال يا غلام هل معك من لبن ؟ قال : نعم ولكني مؤتمن ، فقال له ائتني بشاة لم تحمل ولم تلد ، فأتاه بواحدة فجعل الرسول يمسح ضرعها ويدعو الله حتى درت فأتاه أبو بكر بإناء فاحتلب فيه ثم قال لأبي بكر : اشرب فشرب أبو بكر ثم شرب النبي صلى الله عليه وسلم بعده ، ثم قال للضرع : اقلص فقلص فعاد كما كان . هذا وعبد الله يشهد ويسمع فقال : يا رسول الله علمني من هذا الكلام فمسح رأسه وقال : إنك غلام معلم .

لقد أسلم عبد الله فكان من السابقين وترك غنم عقبة فأخذه الرسول وجعله في رعايته ، فلقد كان أبوه حليف أخوال الرسول وإن جدته لتمت بصلة القرابة إلى أخوال الرسول ، وعقبة من رءوس الشرك ولن يبقى عليه بعد أن أصبح من أتباع محمد فكان يخدم رسول الله : يلبسه نعله ، ويمشي معه وأمامه ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام . حدث أبو موسى الأشعري قال : لقد قدمت أنا وأخي من اليمن ، وما نرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي عليه الصلاة والسلام . وتمر الأيام ويشتد أذى قريش للمسلمين فيهاجر جماعة منهم إلى الحبشة وفيهم عبد الله ثم يهاجرون إلى المدينة ومعهم عبد الله .

هذه رأس أبي جهل :

نحن في العام الثاني من هجرة الرسول في غزوة بدر الكبرى وهذا أبو جهل ملقى بين الجرحى وقد أمر الرسول أن يلتمس في القتلى فوجده عبد الله بن مسعود بآخر رمق فوضع رجله على عنقه قال أبو جهل لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقى صعباً أخبرني لمن الدائرة فقال لله ولرسوله وإن فاتك ، قال أما إن أشد شيء تخزيه اليوم قتلك إياي فقتله وحمل رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل ، فقال الرسول : أالله الذي لا إله غيره ؟ ورددها ثلاثاً ، قال نعم ، ثم ألقى رأسه بين يدي الرسول فحمد الله تعالى وسجد شكراً له .

لقد عاش عبد الله حياة الرسول مقرباً منه أثيراً عنده قال له مرة : اقرأ عليّ سورة النساء ، فقال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأ عبد الله حتى بلغ : « فكيف إذا جئنا من كلّ أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً » ففاضت عيناه صلى الله عليه وسلم

وأمره مرة أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها فنظر أصحاب الرسول إلى حموشة ساقيه — أي دقتهما — فضحكوا ، فقال النبي : ما يضحككم ؟ لرجلا عبد الله في الميزان أثقل من أحد

في أيام الخلفاء :

كان عبد الله في حياة أبي بكر مع الجيوش التي سارت إلى الشام ، وكان موكلا بأمر الغنائم وشهد موقعة اليرموك ، ثم رجع إلى المدينة فكان مقرباً إلى عمر ، قال زيد بن وهب : إني لجالس مع عمر إذ جاءه ابن مسعود ، يكاد الجلوس يواريه من قصره ، فضحك عمر حين رآه فجعل يكلم عمر ويضاحكه وهو قائم ثم ولى فأتبعه عمر بصره حتى توارى ، فقال : « وعاء ملئ علماً » ولما أنشأت الكوفة ، كتب عمر بن الخطاب إلى أهلها : « إني قد بعثت عمار بن ياسر أميراً ، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أهل بدر ، فاقتدوا بهما وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي »

ظل عبد الله بالكوفة حياة عمر ، وزمناً من أيام عثمان ، فلما كادت فتنة القراءات تقع بين المسلمين ، كلف عثمان جماعة من الصحابة وعلى رأسهم زيد بن ثابت أن ينسخوا الصحف التي جمع أيام أبي بكر ، وأرسل عثمان إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق ما نسخ بعد أن أبقى مصحفاً بالمدينة سمي المصحف الإمام و بعث زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدينة ، وبعث عبد الله بن السائب مع المكي ، والمغيرة بن شهاب مع الشامي ، وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي ، وعامر بن قيس مع البصري ، وأمر أن يحرق ما عدا هذه المصحف المصاحف إذ كان فيما عداها بعض الاختلاف اللفظي الذي كان مأذوناً فيه من قبل توسعة على المسلمين. حينئذ تأثر عبد الله بن مسعود لأنه كان يرى نفسه أولى من زيد بن ثابت بالإشراف على نسخ المصاحف ، ولعله كان يرى أن يستمر جواز ما كان مأذوناً فيه ؛ يضاف إلى هذا أن له مصحفاً فيه بعض الاختلاف ، ويتناوله الأمر بالإحراق ، هذا إلى أن كثيراً من التابعين من أهل الكوفة تلقوا عنه فقال : لقد علم أصحاب محمد أني أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم ولو أني أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغنيه الإبل لأتيته . وقال : لقد أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة — وفي رواية سبعاً وسبعين — وإن زيد بن ثابت لصبي من الصبيان » لكن خشية الفتنة التي أطلت برأسها وخوف أن يدخل في القرآن ما ليس منه والحرص على وحدة المسلمين جعل سيدنا عثمان ومن حوله من كبار الصحابة لا يعبئون بأي اعتراض ، ولقد سبق أن كلف أبو بكر زيد بن ثابت بجمع القرآن في مصحف واحد مما كان مكتوباً ، وشهد شاهدان أن هذا المكتوب هو عين ما سمعه كاتبه من فم الرسول فلم يبد عبد الله بن مسعود اعتراضاً لأن ذلك كان جمعاً للقرآن خوفاً عليه من الضياع بوفاة حفاظه ، ولم يأمر أبو بكر بالاقتصار على ما جمع وحرق ما عداه مما كتبه آخرون أو حفظوه ، أما سيدنا عثمان فقد ألزم الناس — وهو محق — بالاقتصار عليه وعبد الله يعلم أن جامعه هو زيد بن ثابت ويرى أنه أولى منه لسبقه في الإسلام ويعلم أن الرسول انتقل إلى الرفيق الأعلى والصحابة يقرأ كل منهم كما علم لهذا كان منه ماقال. قال ابن شهاب الزهري : بلغني أن رجالا من أفاضل الصحابة كرهوا مقالة عبد الله بن مسعود . وقال الحافظ ابن حجر في شرحه على صحيح البخاري : والعذر لعثمان في ذلك أنه فعله بالمدينة وعبد الله بالكوفة ولم يؤخر ما عزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر وأيضاً فإن عثمان إنما أراد نسخ الصحف التي كانت جمعت في عهد أبي بكر وأن يجعلها مصحفاً واحداً ، وكان الذي نسخ ذلك في عهد أبي بكر هو زيد بن ثابت لكونه كان كاتب الوحي فكانت له في ذلك أولية ليست لغيره »

ولقد بلغ سيدنا عثمان ما قاله عبد الله ، فأرسل إليه يأمره

بالقدوم عليه بالمدينة ولعله خشي أن يظل في العراق يلقن مصحفه الذي يدخل تحت إباحة « أنزل القرآن على سبعة أحرف ... » فاجتمع الناس على عبد الله بالكوفة فقالوا : أتم ونحن نحملك أن يصل إليك شيء تكرهه فقال عبد الله : إن له عليّ حق الطاعة ولا أحب أن أكون أول من يفتح باب الفتنة » وتوجه إلى المدينة واستثنى عما كان مفروضاً له بن العطاء .

دخل عليه مرة عثمان يعوده في مرضه فقال له ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي . قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني . قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه . قال : يكون لبناتك . قال : أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة . إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ الواقعة كل يوم لم تصبه فاقة أبداً » فلما توفي رضي عنه سنة ٣٢ هـ دفع عثمان مجموع ما كان مفروضاً له وامتنع عنه إلى ورثته . وقال أبو الدرداء حينما بلغه موت عبد الله : ما ترك بعده مثله

عدد مصحفه وبعض قراءاته :

أجمع الأئمة على أن ترتيب الآيات توقيفي فقد كان يأمر الرسول جاء به جبريل من الله العزيز الحكيم أما ترتيب السور فالصحيح أنه ليس توقيفياً ، ولهذا اختلفت مصاحف الصحابة في ترتيبها فمصحف عليّ كان مرتباً حسب نزول السور يبدأ بالمكي ثم المدني واكتفى بذكر ترتيب السور العشر الأولى من كل مصحف ، ولمن شاء المزيد أن يرجع إلى الإتقان وكتاب المصاحف .

المصحف المشهور ومصحف أبي ومصحف ابن مسعود مصحف علي

١ — أم الكتاب	أم الكتاب	البقرة	اقرأ
٢ — البقرة	البقرة	النساء	ن
٣ — آل عمران	النساء	آل عمران	المزمل
٤ — النساء	آل عمران	الأعراف	المدثر
٥ — المائدة	الأنعام	الأنعام	الذهب
٦ — الأنعام	الأعراف	المائدة	والشمس
٧ — الأعراف	المائدة	يونس	الأعلى
٨ — الأنفال	يونس	براءة	والليل
٩ — براءة	الأنفال	النحل	والفجر
١٠ — يونس	براءة	هود	والضحى

وهذه مقارنة بين بعض ما روي من قراءة عبد الله والقراءات الصحيحة السند المشهورة :

القراءة الصحيحة السند	ما روي من قراءة ابن السمود
١ — اهدنا الصراط المستقيم	ارشدنا الصراط المستقيم
٢ — صراط الذين أنعمت عليهم	صراط من أنعمت عليهم
٣ — فأزلهما الشيطان عنها	فوسوس لهما الشيطان عنها
٤ — إن البقر تشابه علينا	إن البقر متشابه علينا
٥ — وإثمهما أكبر من نفعهما	وإثمهما أكثر من نفعهما
٦ — إنما وليكم الله ورسوله	إنما مولاكم الله ورسوله
٧ — والتردية والنطيحة	والتردية والمتوحشة
٨ — لا يظلم مثقال ذرة	لا يظلم مثقال نملة
٩ — إن كانت إلا صيحة	إن كانت إلا زقية
١٠ — كالعهن المنفوش	كالصوف المنفوش

تدوينه وأثره :

لعبد الله بن مسعود أثر في قراء الكوفة سواء كانوا من السبعة أم من العشرة ، أم من الأربعة عشر فقد تلقى عنه عاصم ابن ضمرة والحارث بن عبد الله وزر بن حبيش وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو عمرو سعد الشيباني وعبيدة بن عمرو والأسود بن يزيد ومسروق بن الأجدع وزيد بن وهب وعلقمة بن قيس وعبيد ابن نضلة وأبو الأسود الدؤلي . وإلى هؤلاء — الذين انفرد بعضهم بالأخذ عنه ، وبعضهم جمع إليه الأخذ عن غيره من الصحابة والتابعين — تنتهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي من السبعة وخلف من العشرة والأعمش من الأربعة عشر هذا إلى جانب ما تلقوه من رواة آخرين من صحابة مختلفين .

لكن هؤلاء الذين رووا لنا قراءة (١) ابن مسعود وغيره اقتصروا على ما وافق الرسم العثماني وتركوا ما خالف ذلك تبعاً لأمر الخليفة واتباعاً لإجماع المسلمين فأصبح ما يروى مخالفاً للرسم العثماني من قراءته وقراءة غيره كأبي بن كعب وعلي وسعد بن أبي

(١) يمثل قراءة ابن مسعود الصحيحة للواقفة الرسم العثماني رواية أبي بكر شعبة عن عاصم أحد القراء السبعة حيث قال عاصم لحفص : ما أقرأكه هو ما تلقيته عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي وما أقرأته لحمزة هو ما تلقيته من زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود .